

الممكن من المستحيل في الحوار بين الأديان د. محمد عبد الواحد العسري

تمهيد:

يكتسب هذا الموضوع مشروعيته الفكرية والحضارية من واقع عالمنا الراهن تسعى فيه العولمة إلى صهر الناس في بوتقة واحدة وتعميم نماذجها السياسية والاقتصادية والأخلاقية عليهم، بقدر ما ينظرون في أديانهم المتعددة، بوصفها أهم ثابت في تكوين هوياتهم وإنعاشها. لذلك فإن أغلب الإيديولوجيات التي أنكرت أهمية البعد الديني أو الروحي في الناس أجمعين، وقوة تأثيره فيهم وفي توجيه سلوكهم وأفعالهم، قد تراجعت اليوم عن إطلاقية هذا الإنكار¹. وبذلك فهي تضع الأديان ومؤسساتها، والباحثين في مجالاتها المختلفة، وعموم المتدينين، تُجاه مسؤولياتهم المتعلقة بضرورة النظر في إمكانية الحوار فيما بينهم؛ لمواجهة التوحش الرأسمالي للعولمة المذكورة، ولتقليل آثار خطابات الكراهية والعنف والإقصاء التي بثوها في أديانهم وتقاليدهم الدينية المختلفة. فهل يمكن للأديان أن تندرج في مثل هذه الاستراتيجية؟

1-1. من المعلوم أن الحوار من حيث دلالاته المعجمية والتداولية في اللغة العربية وفي اللغات الغربية (Dialogis) لا يكون إلا بين طرفين أو أطراف، يستفرغون الجهد في معالجة مسألة ما، ملتزمين معرفياً وأخلاقياً باقتسام ما سيسفر عنه الجهد ذاته. وبعد التنبيه على أن الكناية في سؤالنا تعني: هل يمكن أن يتحاور المتدينون فيما بينهم، لأنه لا "قدرة للأديان على التحاور فيما بينها إلا من خلال معتنقها"² وبواسطتهم، فما هي الموضوعات التي يمكنهم الحوار فيها؟ أي يمكن أن تكون قضايا لاهوتية أو عقدية، أو تشريعية مختلفة فيما بينها؟ وبعبارة أخرى، هل يمكن أن يُحاور المسلمُ النصرانيُّ أو يُحاورَ المسلمُ وحدَه أو بمعية النصرانيِّ اليهوديِّ، في تصور كل منهم لله ولذاته وصفاته، وللمعاد، وللنبوة والإيمان والتوحيد والشرك والكفر، ولشرائعهم المختلفة إلخ.. هل سيري المسلم واليهودي في لغز التثليث النصراني ضرباً من أضرب الشرك الظاهر، أو الخفي؟ وكيف يمكن لليهودي والنصراني الاعتراف بنبوة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وفي معتقده أن النبوة قد اختتمت في اعتقادهم بموسى عليه السلام، وبيعيسى سلام الله عليه عند ثانيهما³. لعل ذلك هو ما حال بين هؤلاء المؤمنين وبين الحوار فيما بينهم، ليتوسلوا منذ لقاءاتهم الأولى

¹. على مبارك، "الرحمة والإحسان في تقاليد الأديان الإبراهيمية. بحث في تداول الخطاب الديني (الرسالة والتاريخ)"، الأسس والأهداف المشتركة للأديان، أشغال مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان، 2009، 61.

². ماريو أنور، "الحوار بين الأديان ثقافته ومنطلقاته"، موقع الحوار المتمدن.

[www. Alhewar.org/debat/schow.art.asp/*?aid=44611](http://www.Alhewar.org/debat/schow.art.asp/*?aid=44611)

³. نبه على أن تمثيلنا باتباع هذه الأديان الوحيانية أو الرسالية لا يعني ازدياداً للأديان أو التقاليد الدينية الأخرى، بل يعني افتقارنا للقدرة على التمثيل بها. يراجع في نقد التمييز القيمي بين الديانات رشيد سعدي، الدين بين الحقيقة الحصرية والعرفان الصوفي. في نظرية الصراطات المستقيمة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2011، 28.

بالمجادلة الدينية في مطارحاتهم فيما بينهم وردود بعضهم على بعض. والمجادلة اصطلاحاً وتداولاً في لغة الضاد، (ولعلها كذلك في غيرها من اللغات المذكورة أعلاه)، (Polémique) هي اللدد في الخصومة والقدرة عليها. لذلك لم يحرك جميع هؤلاء واجب التعاون على تأسيس روح الدين أو حقيقته المشتركة بين الأديان واقتسامها، بل غلب عليهم هاجس حصر الدين في الحقيقة التي يخولها له كل واحد منهم، على حدة، والعمل على فرضها على الآخرين.

أنخلص من هذا إلى أنه لا سبيل للأديان أو للمؤمنين المختلفين إلى الحوار؟ لعل الأمر كذلك بالفعل؛ فلا سبيل لهم إلى هذا المطمح ما داموا يتخذون من القضايا الدينية السابقة الذكر موضوعاً لما يسموه بحوارهم. أما إذا جعلوا من المشترك بين روح أديانهم جميعها، ومن مختلف المسائل التي تهم وجودهم الجمعي في هذا العالم موضوعاً لحوار أديانهم، أو تقاليدهم الدينية، فإنهم قد يتمكنون من الاندراج ضمن الحوار المنشود. يتعلق الأمر بالنسبة لهذه المسائل الأخيرة بمختلف التحديات التي تطرحها الحالة الراهنة لعالم اليوم على الإنسانية جمعاء. ومنها تحديات الرأسمالية المعولة في مصادرة الاختلاف والتنوع، وتخفيض أرباح منتجي المواد الأولية، وتفجير الفئات الهشة، وصغار الفلاحين، والعمال، والنساء والأطفال والمسنين، والمرضى والعجزة، وتهميشهم، وفي خصصة جميع وسائل الإنتاج وقطاعات التعليم والصحة. ومنها كذلك قضايا الانحباس الحراري والتلوث البيئي، والمخدرات وتجارة الرقيق الأبيض، والانحلال الأخلاقي، ومسائل العدالة والتضامن مع المحرومين وحقوق الإنسان إلخ، فضلاً عن قضايا العنف والإرهاب العالميين⁴.

1-2. ولا بأس، للتمثيل على هذا الأمر، بكلمة في هذه التحديات الأخيرة. من المعلوم أن علاقة الأديان بالعنف والإرهاب سرعان ما تتحول على أيدي المتدينين إلى علاقة ملتبسة ومزدوجة ومركبة. فالرهانات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تخترق الأديان وتورطها في تسويق ما يترتب عنها من توتر وحروب، أو من السلم وفض النزاعات. وحوليات الإرهاب تعلمنا أن أول العمليات الإرهابية في التاريخ قد قامت بها جماعتان يهوديتان باسم اليهودية ضد النصرانية، غير أن هذه العمليات، لم تكن بمنأى عن الرهانات المذكورة⁵. وكذلك الشأن بالنسبة للجماعات النصرانية والإسلامية التي توسلت بالعنف، ولم تستنكف من تسويغه بالدين. لذلك فعلى المؤمنين بهذه الأديان أن يستثمروا ما في تقاليدهم الدينية

⁴. يبدو لي بأن ترجمة المصطلح الأجنبي: Terrorisme بمصطلح: الإرهاب في حاجة إلى المراجعة، لترجمته بمصطلح: الإرهاب، أو بأي دال آخر، درأً للالتباس والتخليط، بين الإرهاب كما يتخله الناس اليوم، وبين موداه في الآية الكريمة: وَأَعَدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ. (الأنفال. 60). فالإرهاب بمعناه القرآني ليس إلا تخويفاً وردعاً؛ يجبي ولا يميت، في الوقت الذي هو فيه بمعناه التداولي ترويعاً يميت ولا يجبي.

⁵. Rapoport David C. Fear and Trembling, Terrorism in Three Religious Traditions", The American Political Science Review, Vol. 78, No. 3 (Sep., 1984), 60.

Dany Dechenes, "Réflexion historique et dimension théorique du terrorisme : de sa naissance au 11 septembre 2001, Revue Paix et Sécurité, Dossier : le Terrorisme International, N°. 2, Décembre 2003, 15.

الخاصة لإنعاش ثقافة فض النزاع، في مقابل عملهم على إعادة النظر فيما فيها عن العنف والحرب، لفهمه على وجهه الصحيح، حتى يتقلص دوره ويتوارى عن تدبير حياة هؤلاء المؤمنين. فلقد جاء في سفر إشعياء (أ. 15): "فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم وإن كثرت الصلاة لا أسمع. أيديكم مملوءة دما"، وقال عيسى عليه السلام: "طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض" (متى 4:5)، وقال يوحنا الرسول في رسالته الأولى (3: 15): "نحن نعلم أننا انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحُبُّ إخوتنا، من لا يُحِبُّ بقي رهن الموت. وكلُّ من أبغض أخاه فهو قاتل". وقال عز من قائل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، (البقرة، 208).

2-2. وإن كان لا بد من كلمة لمن تأخذهم دوامات التدين الإسلامي إلى ممارسة العنف والإرهاب، بعد التفسيق والتكفير، باسم فريضة الجهاد، فإن الجهاد المعتبر المفروض في الإسلام هو الجهاد الأكبر الذي حث عليه التنزيل الكريم، ودعا إليه نبي الرحمة محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ أي جهاد النفس الأمارة بالسوء لترقيتها إلى معرفة ربها وحبها، وتزكيتها بالفضائل النافعة لجميع خلقه ومخلوقاته والرحيمة بهم. أما الجهاد بمعنى الحرب المقدسة، فهو غير مفروض، لذاته، في الإسلام كما يدعون، بل مقصود لغيره، أي لحماية المسلمين من الاعتداء المحتمل عليهم. وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. (البقرة، 190). وهو مقيد بشروط عديدة كما هو معلوم من فقه الحرب والسلم، بحيث إنه لا يحل للمسلمين أبداً بأن يبدؤوا الناس بالعدوان أو يستنكفوا السلم. فليس المقصود بالجهاد إهلاك خلق الله عز وجل ومخلوقاته لأنه لم يخلقهم عبثاً، أو تخريب بلدانهم، لأنه أمر بتعميرها. لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، (المتحنة، 8). ثم إن الإسلام بمعنى الاستسلام والانقياد لله سبحانه، يقتضي، من حيث أس عقيدته، الإيمان بأن رب العالمين قادر على كل شيء وفعال لما يريد، والتسليم له، تبعاً لذلك، وله وحده، مصير خلقه، للنعو عنهم أو لعقابهم.

3-3. يمكن للمتدينين أن يتحاوروا في مختلف التحديات والقضايا المذكورة آنفاً، إذا استفرغ كل واحد منهم جهده في العودة إلى ثقافته وتقاليد الدين ليعد منها الأجوبة والمقترحات التي يمكن أن يقدمها لمحاوره من الدين الآخر، وإذا حرص على أن يكون محاوراً إيجابياً وطامحاً في الفهم والتفهم والاستيعاب والاعتناء المتبادل بينه وبين محاوريه، وعلى ضرورة تجنب وقاحة الاستعلاء والالتزام في المقابل بمبدأ "الحياء" من الله، ومن الغير ومن الذات⁶، و"بقيمتي الإيمان والعمل، وبواجب العمل على التمكين للدين في العالم، وعلى الارتقاء بالتقدم الأخلاقي"⁷.

⁶. يراجع: طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، 143-157.

⁷. من الدرس الافتتاحي لطله عبد الرحمن في رحاب آداب تطوان للسنة الجامعية: 2012-2013 ؟؟

فإن طمع المتدينون ذاتهم بأن لا يكتفوا بهذا الضرب من الحوار، ليخولوا لأديانهم الخاصة إمكانية حوار أعلى وأسمى فيما بينها، فعليهم مقارنة هذا الأمر انطلاقاً مما يتجاوز الاختلافات الظاهرة بين أديانهم، ومهيمن في نفس الوقت على جميعها؛ أي انطلاقاً من المشترك بين روح أديانهم جميعها، التي يمكنهم إدراكها، أو بالأحرى تذوقها، إن سعوا إلى التزكية المذكورة آنفاً، والتحقق في مقام الإحسان. وبعبارة أخرى فالمتدينون يمكنهم أن يتحاوروا فيما يشكل داخل كل دين من أديانهم دين الفطرة وبواسطتها. يرى "فيرتجوف جون أن هناك مبدئين اثنين لتحديد مفهوم ديانة الفطرة: 1. وجود عمق وجوهر مشترك هو الدين الواحد والفطري، ولكنه مُتَجَلِّ في أشكال مختلفة؛ 2. الإقرار بأن الإنسان يحمل في داخله جوهر هذه الحقيقة وأنها مؤسسة لكيونته. بمعنى آخر إنَّ الإنسان مجال روح الله وفضاء تجلياته"⁸. نعم إن روح الله ماثورة في الإنسان، أي الإنسان المسور بالسور الكلي، بمقتضى النفخة الإلهية الأزلية. وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. (الحجر 28-29). فإذا عاد المتدينون إلى هذه الروح للبحث في ذواتهم، وفيما بينهم، عن الذي نفخها فيهم جميعاً؛ عن الله سبحانه وتعالى، محبة فيه، وعشقا له، وسعياً للقرب منه؛ فإنهم لا شك لن يجادلوا في فرض بعضهم هذه الحقيقة على بعض، بل سيقسمونها بالحوار فيما بينهم لأنها تشكل، بالفعل، المشترك بين أديانهم المختلفة. ولا ريب في ذلك، فالاختلاف بينها هو اختلاف في ظاهرها، لا يمنع أنها متفقة في جوهرها. كيف لا وهي تؤمن بإله واحد ولا تشرك به، وتدعو لعبادته والإخلاص له، وفيها يقر المؤمنون بها بافتقارهم إلى الله عز وجل الذي يشملهم جميعاً ويجري عليهم إرادته. فهو الذي جعل منهم قوما هادوا وآخرون نصارى وغيرهم مسلمين. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. (البقرة. 62).

2-3. وغني عن البيان أن ركون المتدينين إلى هذا الاختلاف الظاهري بين أديان هؤلاء جميعاً، واستنادهم إليه في تحديد علاقات بعضهم ببعض، هو الذي يسهم في تأسيس هوياتهم الدينية المختلفة، وفي انغلاقها على ذواتها وصراعها فيما بينها. وذلك في الوقت الذي يمكن أن يسهم بحثهم عن روح هذه الأديان وحقيقتها الأزلية في تقاليدهم الروحية في درء هذا الصراع. لا يعني هذا أنّ على المتدينين أن ينصهر بعضهم ببعض، ، أو أن يفرضوا في الرسوخ في معتقداتهم الخاصة، أو أن يعصفوا بهوياتهم الدينية المختلفة، بل يعني أن يستحضروا في حوار بعضهم بعضاً حقيقة هذه الهويات الثلاث، وأنها ليست في واقع الأمر غير تنويعات عن هذه الهوية الأصلية. وبذلك وبمقتضى هذا الوعي بالأصل الواحد وبالتنوع المتعدد، فإنهم سيزدادون رسوخاً في دياناتهم الخاصة، وسيتمكنون من تذوق جميع القضايا التي ذكرنا سابقاً، ومن طرحها على طاولة الحوار فيما بينهم، من خارج الانغلاق على الذات، أو التعصب ضد الأعيان. وذلك فضلاً عن أن هذا الوعي سيشكل في ذاته طريقاً لإعادة اكتشاف المتدينين أنفسهم لإنسانيتهم الواحدة، وليسيرهم جميعاً على نهج أرواحهم الواحدة إلى ربهم الواحد: الله جل جلاله، ليقسموا على هديه حيواتهم المتعددة

⁸. Shuon Frithjof, De l'unité transcendante des religions, Seuil, Paris, 1979.

هذه المقالة خاصة بباب "مقالات" على موقع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي. كل الحقوق محفوظة. 1 يونيو 2020.

في عالمهم الواحد المشترك بينهم، بالرحمة والإحسان. إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. (إبراهيم 90).

عندما توفي مولانا جلال الدين الرومي، شيعت جنازته، التي تحولت إلى عرس، جميع الطوائف الدينية في قونية. فبالإضافة إلى المسلمين، حضرها المسيحيون واليهود واليونانيون والعرب والترك. ولقد رفعت كل طائفة منهم كتابها المقدس، فنتج عن ذلك اضطراب وهيجان جعل السلطان يستنكر على غير المسلمين منهم مشاركتهم في الموكب المهيب لهذه الجنازة. فكان ردهم عليه: "عندما رأيناه فهمنا حقيقة المسيح وموسى وكل الرسل، ووجدنا فيه سير كل الأنبياء المخلصين الكمل... [...] هل كان جلال الدين الرومي مسلما، أو يهوديا أو مسيحيا أو على دين آخر؟ لقد كان مسلما صوفيا؛ أي إنسانا كونيا. وكما كانت حياته فقد كان رحيله فضاء حقيقيا للقاء الأديان..."⁹.

الدكتور محمد عبد الواحد العسري



- من مواليد القصر الكبير سنة 1955. يعمل أستاذا باحثا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان. بجامعة عبد المالك السعدي بالمغرب. وهو رئيس شعبة اللغة العربية وأدائها.

- حاصل على دكتوراة السلك الثالث في الآداب من جامعة السربون الأولى بباريس في 1983
- حاصل على دكتوراة الدولة في الآداب من جامعة عبد المالك السعدي في 2001.
- عضو مجموعات بحث متخصصة، وخبير معتمد لدى بعض المجلات العربية والأجنبية.
- مؤلف مجموعة من المقالات والكتب ومساهم في كتب جماعية عديدة نشرت بالعالم العربي وإسبانية، وخارجهما. والدكتور محمد عبد الواحد العسري حاصل على جائزة المغرب للكتاب برسم سنة: 2003.

⁹. رشيد سعدي، الدين بين الحقيقة الحصرية والعرفان الصوفي، س.ذ، 16-18.